ذلك من صنوف الكذب ، ولا أحد أظلم ممّن كذّب بآيات الله تعالى وكفر بالقرآن الكريم وبالرّسول العظيم ﷺ واستكبر عن عبادة الله تعالى . إنّ أولئك الظّالمين حقًّا ينالهم نصيبهم من الكتاب وحظّهم من العذاب . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا يجيء فيها القول : أولئك ينالون نصيبهم من الكتاب ، ولكن : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ والمراد بالكتاب اللّوح المحفوظ(١) والّذى ينالهم هو ما كتب الله سبحانه وتعالى عليهم من الشّقاوة فى الحياة الأولى والسّفاهة والضّلالة . إنّ ربّ العزّة قد سبق علمه جلّ وعلا الّذى ليس للزّمن علاقةٌ به ما سوف يأتون من كفر ويفعلون من ظلم . وها هوذا ما استحقّوه من شقاءٍ ينالونه وكأنّه حظّهم الّذى ليس لهم سواه ، ونصيبهم الّذى كتبه لهم جلّ وعزّ فى علاه . علمًا بأنّهم هم الّذين اختاروا الشّقاء عن عمدٍ وسبق إصرار .

ولّما كانت الوفاة هي البوّابة إلى الآخرة ، وبعد البعث يكون الحساب فالثّواب أو العقاب ، الجنّة أو النّار ، وكنّا بصدد أشدّ بنى آدم ظلمًا لأنفسهم ولسواهم فقد تحدّثت الآية الكريمة بعد ذلك فى هذه المعانى . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ أولئك الظّالمين إذا جاءتهم ووصلت إليهم فعلاً رسل الله تعالى كي تتوفّاهم وتقبض أرواحهم ، وهم ملك الموت وجنده(٢) سألوا أولئك الظّالمين الكاذبين : أين الّذين كنتم تدعونهم من دون الله تعالى وتشركونهم مع الله تعالى فى العبادة ؟ قال الظّالمون المكذّبون : ضلّوا وغابوا عنّا وها نحن أولاء نجيء فرادى كما أخبرنا الرّسل عن الله تعالى . ولا يملك أولئك المكذّبون المستكبرون إلاّ أن يعترفوا بأنّهم كانوا مستكبرين بآيات الله تعالى وبأنّهم كانوا كافرين مكذّبين جاحدين . وهكذا يعترف الظّالمون فى الآخرة بأنّهم كانوا كافرين ، وذلك امتدادٌ لاعترافهم فى الدّنيا حين

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ٨/١٢٤ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٨/١٢٧ .

أَخْذِ العذاب لهم بأنّهم كانوا ظالمين على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الخامسة من السّورة : ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاّ أن قالوا إنّا كنّا ظالمين ﴾ .

ولمّا كان مصير الظّالمين الكافرين إلى النّار وبئس القرار فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث فى هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقم (٣٨)

قال تعالى : ﴿ قال ادخلوا فى أممٍ قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس فى النّار. كلّما دَخَلَتْ أمّةٌ لَعَنَتْ أختها . حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار . قال لكلٍّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون ﴾ .

شهد المكذّبون المستكبرون يوم القيامة أنّهم كانوا كافرين جاحدين وحدانيّة الله تعالى ، ومن الطّبيعيّ أن يشهدوا على أنفسهم بذلك ساعة الوفاة وقبض الملائكة أرواحهم . وفى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها يصدر الحكم من ربّ العباد فى حقّهم . إنّ ربّ العزّة يأمر أولئك الكافرين بأن يدخلوا فى نار جهنّم فى أممٍ قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس ، ومع جماعاتٍ قد مضت من الفريقين كافرةٍ وجاحدةٍ وحدانيّة الله تعالى .

وتصوّر الآية الكريمة حال الجماعات المتتابعة وهى تدخل النّار ، وتبيّن التّلاوم بين اللاّحقين والسّابقين ، الضّالّين والمضلّين . إنّ كلّ أمّةٍ كافرةٍ تدخل النّار تلعن أختها وتسأل الله تعالى أن يبعدها من رحمته لأنّها أضلّت الأمّة الّتى بعدها ، وغرّرت بها،

وانحرفت بها إلى مهاوى الرّدى . وتتتابع الأمم ، وتتلاحق الجماعات، ويدرك الكافرون بعضهم بعضاً فى نار جهنّم : ﴿ حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعا ﴾ وتداركوا واجتمعوا قالت أخراهم ، وهى الأمّة الّتى غُرِّر بها ، لأولاهم ، وهى الأمّة القائدة إلى الكفر والتّكذيب والاستكبار : يا ربّنا ، هؤلاء المجرمون أضلّونا وهؤلاء الأعداء، أعداء الحقّ قد خدعونا وغرّروا بنا فآتهم عذابًا مضاعفًا من النّار ، وخصّهم بمثلى عذاب سواهم ، وذلك بسبب ضلالهم من ناحية، وإضلالهم غيرهم من ناحيةٍ أخرى. قال الله تعالى : لكلٍّ منكم ضعفٌ من العذاب ، ولكلّ أمّةٍ أخرى جزاءٌ مضاعفٌ من العقاب . وإذا كان العذاب الضّعف فى حقّ المتبوعين بسبب ضلالهم من ناحيةٍ وإضلالهم غيرهم من ناحيةٍ فكأنّ العذاب الضّعف فى حقّ التّابعين ـ والله تعالى أعلم ـ بسبب الضّلال من ناحية ، وبسبب تعطيلهم المواهب الّتى خصّهم الله تعالى بها وفى مقدّمتها العقل الّذى ميّز الله تعالى به الإنسان . إنّ كلاًّ من الفريقين له ذلك الضّعف من العذاب الّذى يحسّ به ويتألّم من أجله دون أن يعلم كلٌّ من الفريقين بما مسّ الفريق الآخر من قَرْحٍ وألم .

ادّاركوا : فيه إبدال . أصله تداركوا . أبدلت التّاء دالاً ، ثمّ سكّنت ليصحّ إدغامها ، ثمّ أدخل عليها همزة الوصل ليصحّ النّطق ، وزنه اتفاعلوا(١) .

والآية الكريمة التّالية تبيّن ردّ المضلّين فإلى .

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣٣٣/٤ .

الآيـــة رقـم (٣٩)

قال تعالى : ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كـان لكـم علينـا مـن فضـلٍ فذوقـوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ .

إنّ الأمّة الأولى المتبوعة المضلّـة تقـول للفئـة الأخـرى التّابعـة الضّالـة إنّكـم وأنتـم المتأخّرون عنّا زمناً ما كان لكم علينا من فضل ، فقد اخترتم الضّلالة علـى الهـدى ، وآثرتم العذاب على المغفرة ، فاتّبعتمونا و لم تتّبعوا رسل الله تعالى والدّعـاة إليـه جـلّ وعلا . فأيّ فضلٍ لكم علينا حتّى تطلبوا لنا العذاب مضاعفاً وأنتم الّذيـن وجدتمونـا على أمّةٍ فاتّبعتم سبلنا واقتفيتم خطواتنـا بمحـض إرادتكـم بدليـل أنّكـم لم تستجيبوا للدّاعين إلى الله تعالى . إنّ من حقّكم أن تذوقوا العذاب الشّديد بما كنتـم تكسبون فى الحياة الدّنيا من سوء اعتقاد وفساد عمل .

ولمّا كان دخول الّذين كذّبوا بآيات الله واستكبروا عنها النّـار معنـاه منعهـم مـن دخول الجنّة فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية فى هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقـم (٤٠)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتّح لهم أبواب السّـماء ولا يدخلون الجنّة حتّى يَلِج الجمل فى سَمِّ الخِياط . وكذلك نجزى المجرمين ﴾ .

نصّت آخر آيات القسم السّابق على الّذين كذّبـوا بآيـات الله تعـالى واسـتكبروا عنها ، وها هى ذى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تنصّ هى الأخـرى علـى أولئـك المكذّبين المستكبرين وتقرّر أنّهم لا تُفتح لهم أبواب السّماء فـى أثنـاء حيـاتهم وبعـد

مماتهم . أمّا فى أثناء حياتهم فلا تُفْتَحُ أبواب السّماء لأعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام لأنّهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى ففقدت أعمالهم شرط الإخلاص ، كما لا تفتح لدعائهم لأنّ الكلم الطّيّب وحده هو الّذى يرفعه الله تعالى إضافةً إلى العمل الصّالح . وأمّا بعد مماتهم فلا تُفْتَح أبواب السّماء لأرواحهم الخبيثة على نحو ما جاء فى الحديث النّبويّ الشّريف(١) .

وبالإضافة إلى عدم الفتح لأبواب السّماء للمكذّبين المستكبرين هم لا يدخلون الجنّة مطلقًا . وتعبيرًا عن عدم دخول القوم المطلق الجنّة تقرّر الآية الكريمة أنّ أولئك المكذّبين المستكبرين أصحاب النّار الخالدين فيها لا يدخلون الجنّة حتّى يدخل الجمل وهو الحبل الغليظ(٢) الخاصّ بالسّفن(٣) فى سَمِّ الخياط وثقب الْمِخيط بمعنى الإبرة ، قيل لها خياط ومخيط كما قيل قِناع ومِقْنع وإزار ومِئزر ولحاف وملحف(٤).

إنّ العلاقة وثيقة بين الخيط والإبرة وبين السَّمِّ والخياط ، لأنّ الإبرة والخِياط لا يعمل أيٌّ منهما إلاّ مع الخيط ، بل إنّ كلاًّ منهما بمنزلة السّبب والوسيلة ، أمّا الغاية والهدف فإنّه الانتفاع بالخيط . فإذا كان الهدف وهو الخيط يبدو للوهلة الأولى عند من عنده أدنى مُسْكةٍ من عقل غير ممكن الاستعمال له أساسًا ، بسبب ضخامة حجم الحبل أو المرس الّذى يستعمل للسّفن ، فما الّذى يمكن أن يقال فى حقّ القوى العقليّة لمن يتجشّم حمل مرس السّفينة الضّخم الثّقيل من أجل إدخاله فى ثقب المخيط أو الإبرة ؟ إنّ مجرّد التّفكير فى احتمال ولوج المرس فى ثقب المخيط يحمل على التّشكّك فى القوى العقليّة لذلك الشّخص الّذى يستسيغ مثل ذلك الاحتمال . فإذا كان ثمّة ممارسةٌ فعليّة لإيلاج المرس فى ثقب المخيط أو الإبرة واجتهاد فإنّ ذلك هو عين الجنون .

---

(١) انظر الحديث وتخريجه فى تفسير ابن كثير ٢/٢١٣ و٢١٤ .
(٢) تفسير الطّبري ٨ / ١٣١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٣٠ .
(٤) انظر تفسير الطّبريّ ٨ / ١٣٠ .

ولّما كان المكذّبون المستكبرون لديهم محاولاتٌ من هذا القبيل فذلك معناه أنّهم ذوو جنون . إنّ تلك المحاولات يصحّ أن تستفاد من مثل قوله تعالى[١] : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويَحْسَبون أنّهم على شيء . ألا إنّهم هم الكاذبون ﴾ كما يصحّ أن تستفاد المحاولات من مثل قوله تعالى[٢] : ﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ثمّ نقول للّذين أشركوا أين شركاؤكم الّذين كنتم تزعمون. ثمّ لم تكن فتنتُهُمْ إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم . وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

إنّ فى مثل هذا النوع من الجزاء والعقاب يجزى الله تعالى المجرمين المكذّبين المستكبرين الظّالمين . وتبيّن الآية الكريمة التّالية جزاء الظّالمين الّذين تتحدّث عنهم وذلك على غرار حديث آخر آيات القسم السّابق عن المكذّبين المستكبرين فإلى .

الآيـــة رقم (٤١)

قال تعالى : ﴿ لهم من جهنّم مهادٌ ومن فوقهم غواش. وكذلك نجزى الظّالمين﴾.

لأولئك المكذّبين من جهنّم مهادٌ ، وهو ما امتهدوه ممّا يُقْعَد عليه ويُضْطَجع كالفراش الّذى يفرش ، والبساط الّذى يبسط . ومن فوقهم غواش ، وهو جمع غاشية ، وذلك ما غشّاهم فغطّاهم من فوقهم[٣] إنّ نار جهنّم من تحت أولئك المكذّبين المستكبرين ومن فوقهم . وإنّ فى مثل هذا النّوع من الجزاء والعقاب يجزى الله تعالى الظّالمين ويعاقبهم .

وإذا كانت آخر آيات القسم السّابق نصّت على المكذّبين المستكبرين أصحاب النّار ، وقد تحدّثت آيات هذا القسم فى شيءٍ من التّفصيل عن عقاب هؤلاء ، فإنّ

---

(١) سورة المجادلة ١٨ . (٢) سورة الأنعام ٢٢ - ٢٤ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٣٢ .

الآية الكريمة السّابقة على آخر آيات ذلك القسم تحدّثت عن المتّقين الّذين يعملون الصّالحات أصحاب الجنّة . وكما كان الحديث عن عقاب الكافرين فى شيءٍ من التّفصيل كان الحديث عن ثواب المؤمنين فإلى .

الآيـــة رقـم (٤٢)

قال تعالى : ﴿ والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لا نكلّف نفسًا إلاّ وُسْعَها أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون ﴾ .

يتبيّن من الآية الكريمة أنّ الإيمان بالقلب ليس بكافٍ بل لا بدّ من تقديم الدّليل العمليّ عليه ، بمعنى أنّ الإعلان باللّسان غير كافٍ أيضًا . وإذا كان اسم الموصول : ﴿ الّذين ﴾ مبتدأ ، وكان الخبر : ﴿ أولئك أصحاب الجنّة ﴾(١) فذلك معناه أنّ جملة : ﴿ لا نكلّف نفساً إلاّ وسعها ﴾ . معترضة . ويتبيّن من هذه الجملة المعترضة رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيء ، فمع اشتراط العمل الصّالح دليلاً على الإيمان بالقلب والإعلان باللّسان ثمّة تنبيهٌ فوريّ إلى أنّ ربّ العزّة لا يكلّف نفسًا إلاّ وسعها. وإنّ مجيء لفظة الوسع بالذّات وليس الطّاقة مثلاً مؤكّدٌ لرحمة الله تعالى الواسعة . إنّ الوُسْع من القدرة ما يُفْضُلُ عن قدر المكلّف(٢) بمعنى أنّ التّكليف لا يستنفد كامل طاقة المكلّف وجهده إنّما يستنفد بعض تلك الطّاقة ويفضل لدى المكلّف وراء ذلك المزيد من القدرة والطّاقة على العمل .

وعلى غرار العمل الّذى يتألّف من شقّين اثنين يأتى الجزاء . إنّ ثمّة إيماناً وعمل صالحات ، وإنّ ثمّة جنّةً وخلوداً فيها فهم أصحاب الجنّة وكأنّهم لكامل حريّة التّصرّف فيها مالكوها وأصحابها .

---

(١) انظر مثلاً تفسير الجلالين والجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٤ / ٣٣٧ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « وسع » ٥٢٣ .

والآية الكريمة التّالية والأخيرة فى القسم تبيّن بعض مظاهر النّعيم فى الجنّة. فإلى.

الآيـــة رقـم (٤٣)

قال تعالى : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الّذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربّنا بالحقّ ونودوا أن تلكم الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

تذكّرنا الآية الكريمة بهذه الآية الكريمة من سورة الحجر(١) . قال تعالى : ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخوانًا على سررٍ متقابلين ﴾ والغِلّ هو الحقد(٢) والحسد والبغض(٣) ويتبيّن من الآية الكريمة أنّ الإيمان لا تذهبه العداوة بين المؤمنين رغم آثارها السّيّئة المدمّرة . وقد خاطب ربّ العزّة المؤمنين بالقول(٤) : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرّسول فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ويُفْهَم من جملة : ﴿ ونزعنا ﴾ أنّ الغِلّ متمكّنٌ من الصّدور والقلوب بطبعه ، متشعّبٌ فيها ، لذا فإنّ خروجه بحاجةٍ إلى عمليّة نزعٍ تذكّرنا بأولى آيات سورة النّازعات : ﴿ والنّازعات غرقًا ﴾ وفيها التّنبيه إلى نزع ملائكة الموت أرواح الكافرين بشدّةٍ وعنف ، فكما يُغْرِق النّازع ويبالغ فى شدّ القوس من أجل إرسال السّهم بعيدًا تُغْرِق ملائكة العذاب وتبالغ فى نزع أرواح الكافرين وشدّها .

والمعروف أنّ الصّدور تتّسع للقلوب والأفئدة وما إلى ذلك . وفى نزع الغِلّ من الصّدور نزعٌ لها من جميع مظانّها خاصّةً مع مجىء حرف الجرّ مِنْ الّذى يفيد التّبعيض فى القول : ﴿ من غلّ ﴾ وقد بيّنت آية سورة الحِجْر السّابقة أنّ المؤمنين

---

(١) الآية ٤٧ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨/١٣٣ والجلالين .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢١٥ .
(٤) سورة الأنفال ١ .

فى الجنّة يجلسون متقابلين على سرر . وإنّ الإقبال بالوجوه ثمرةٌ لنزع الغِلّ من الصّدور .

ودليلاً على النّعيم المقيم فى جنّات النّعيم تتدفّق مختلف الأنهار فيها من ماءٍ ولبنٍ وخمرٍ وعسل . ومع أنّ ذكر مطلق الأنهار فى الآية الكريمة يعنى كلّ أنواع الأنهار فإنّ أنهار الماء غير الآسن هي الّتى تتبادر إلى الذّهن لعواملَ كثيرةٍ من أهمّها شحّ الأنهار المتدفّقة فى بلاد العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم . إنّ الأنهار المتدفّقة خيرٌ وجمالٌ عند العربيّ على جهة الخصوص الّذى يعيش فى جزيرة العرب. وقد تأكّد للعلماء أخيرًا أنّ جزيرة العرب يكاد يفوق حظّها من الشّمس المباشرة حظّ أيّ صحراءَ أخرى فى الدّنيا . لقد تأكّد للعلماء أخيرًا هذا حينما ظهرت الحاجة للطّاقة الشّمسيّة وتأكّدت النّيّة لتسخيرها . والمعروف أنّ من أهم الأسباب وراء المعارك بين العرب والأيّام شحّ المياه وقلّة العيون والآبار . إنّ تدفّق أنهار الماء فى الجنّة رمزٌ لنعيمها المقيم كما تبيّن .

وتجاه ما يصادفه المؤمنون فى الجنّة ممّا تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وممّا لا يخطر على بال أحدٍ لا يملكون إلاّ أن يهتفوا بالحمد لله ربّ العالمين وبالثّناء الجميل على الله تعالى بما هو أهلٌ له جلّ وعلا : ﴿ وقالوا الحمد لله الّذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربّنا بالحقّ ﴾ .

ويتبيّن من هذا التّعبير الّذى يفيض بالشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه وبالامتنان الكبير بعض مظاهر فضل الله تعالى على عباده . إنّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسله وقد قال تعالى(١) : ﴿ إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً وإن مِنْ أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾ وها هى ذى آية سورة الأعراف فى القول : ﴿ لقد جاءت رسل ربّنا بالحقّ ﴾ يجيء فيها جملة ﴿ جاءت ﴾ الّتى تفيد الوصول الفعليّ لهؤلاء المرسلين إلى عباد الله تعالى من ربّهم الرّحيم . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ الّذى جاء على لسان

---

(١) سورة فاطر ٢٤ .

المؤمنين فى القول : ﴿ رسل ربّنا ﴾ يفيد الخصوص وامتنان هؤلاء المنعم عليهم لنعم الله تعالى العظيمة وآلائه جلّ وعلا الجسيمة فى حقّهم .

وإنّ ربّ العزّة هو الّذى هدى أولئك المؤمنين . والمراد بالهدى هنا ذلك النّوع من الهدى الخاصّ بالذّات العليّة وهو هدى التّوفيق من ربّ العباد . إنّ العباد يبدأون بذكر هذا النّوع من الهداية : ﴿ وقالوا الحمد لله الّذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ ومن البيّن أنّ هذه الجزئية الكريمة تأخذ بسببٍ من هذه الآية الكريمة الأخيرة من سورة العنكبوت(١) قال تعالى : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ .

وإذا كانت هداية التّوفيق من ربّ العباد ظاهرةً فى هذا القول فإنّ ثمّة نوعًا آخر من الهداية مضمرًا . وهذا النّوع من الهداية هو هداية الدّلالة والإرشاد من عباد الله تعالى وفى مقدّمتهم رسل الله تعالى الّذين جاء عنهم القول على لسان المؤمنين : ﴿ لقد جاءت رسل ربّنا بالحقّ ﴾ . إنّ عباد الله تعالى وفيهم رسل الله تعالى لا يملكون إلاّ الدّلالة على الهداية والإرشاد إلى الهدى . أمّا الموفّق للهدى المالك لكلّ أنواع الهداية فإنّه ربّ العباد جلّ وعلا وحده لا شريك له .

وهكذا يتبيّن أنّ ربّ العزّة يرسل رسله بالهدى ، وقد أرسل محمّد بن عبد الله ﷺ بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون . كما يتبيّن أنّ الحريص على الهدى من بنى آدم يوفّقه الله تعالى للهدى واعتناق دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ . فعلى كلّ بنى آدم أن يجاهدوا فى الله تعالى وأن يحرصوا على الحقّ كي يهديهم الله تعالى سبله الموصلة إلى النّعيم المقيم فى جنّات النّعيم .

وليس بخافٍ تواضع المؤمنين الجمّ ومعرفتهم الحقيقيّة لأقدارهم . إنّ الله تعالى وحده لاشريك له ، له الحمد والمنّة والفضل أوّلاً وآخرًا ، وإنّ من مظاهر كلّ ذلك

---

(١) الآية ٦٩ .

تمكين الله تعالى عباده المؤمنين من هداية التّوفيق .

أمّا التّذييل فى الآية الكريمة : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ فإنّه يفسّره هذا الحديث النّبويّ الشّريف . روى النّسائيّ وابن مردويه واللّفظ له عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : كلّ أهل الجنّة يرى مقعده من النّار فيقول : لولا أنّ الله هدانى فيكون له شكرًا . وكلّ أهل النّار يرى مقعده من الجنّة فيقول : لو أنّ الله هدانى فيكون له حسرة . ولهذا لمّا أورثوا مقاعد أهل النّار من الجنّة نودوا أن تلكم الجنّة أورثتموها بما كنتم تعملون[1] إنّ أهل الجنّة يرثون المقاعد الخالية فى الجنّة الّتى كانت مخصّصَةً لأهل النّار لو آمنوا وعملوا صالحاً .

وإنّ القول : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يؤكّد كون العمل الصّالح هو الدّليل الأكيد على صدق الإيمان . وإنّما يكون العمل صالحاً إذا تحقّق فيه شرط الصّواب بأن يكون صالحاً بمقياس الإسلام وشرط الإخلاص بأن يريد العبد بعمله الصّالح وجه ربّه الأعلى . إنّ دخول الجنّة إنّما يتمّ بفضل الله تعالى وحده لا شريك له حينما يقبل جلّ وعلا العمل الصّالح الخالص بفضله ومنّه . ثبت فى الصّحيحين عنه ﷺ أنّه قال: واعلموا أنّ أحدكم لن يدخله عمله الجنّة . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلاّ أن يتغمّدنى الله برحمةٍ منه وفضل[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢١٥ .

[٥]

« أصحاب الجنّة والنّار والأعراف »

الآيات (٤٤ ـ ٥١)

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا
فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن
لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ
لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ
أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ
ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ
ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ
﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا
مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا
وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟
لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

تتحدّث آيات القسم عن أصحاب الجنّة وأصحاب النّار وأصحاب الأعراف وهو السّور بين الجنّة والنّار . إنّ أصحاب الجنّة ينادون أصحاب النّار قائلين بأنّهم وجدوا ما وعدهم ربّهم جلّ وعلا من نعيمٍ فى الجنّة حقًّا فهل وَجَد أصحاب النّار ما وعدهم ربّهم من عذابٍ حقّا ، خاصّةً وأنّ من العذاب ما هو نفسى . ويجيب أصحاب النّار بالإيجاب ﴿ فأذّن مؤذّنٌ بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الّذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴾ وبين الفريقين حجابٌ هو سور الأعراف الّذى يكون عليه رجالٌ تساوت حسناتهم وسيّئاتهم ويلحق بهم نساء . وأصحاب الأعراف يعرفون أصحاب الجنّة ببياض الوجوه وأصحاب النّار بسوادها . ويبدأ أصحاب الأعراف بنداء أصحاب الجنّة بإلقاء السّلام عليهم متمنّين أشدّ ما يكون التّمنّى إلى حدّ الطّمع أن يدخلوا الجنّة . وهم فى أعماقهم يعلمون أنّ دخولهم الجنّة إنّما يكون بفضل الله تعالى وحده لا شريك له . وبفعل صوارف خارجيّة كصراخ أصحاب النّار لشديد العذاب تتّجه أبصار أصحاب الأعراف ناحية أصحاب النّار فيسألون ربّهم جلّ وعلا الّذى زحزحهم عن النّار ألاّ يجعلهم مع القوم الظّالمين فى النّار . وينادى أصحاب الأعراف رجالاً من أصحاب النّار يعرفونهم بسواد وجوههم ويقولون لهم على سبيل التّقريع إنّكم لم ينفعكم جمعكم المال الكثير فى الدّنيا والجاه العريض والاستكبار عن عبادة الله تعالى وتعاليكم على فقراء المؤمنين وضعفائهم الّذين أقسمتم أنّ الله تعالى لن ينالهم برحمةٍ منه . لقد قيل لضعاف المؤمنين ﴿ ادخلوا الجنّة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ وحينما يطلب أصحاب النّار من أصحاب الجنّة مجرّد الفائض من الماء والرّزق لا يجابون لما طلبوا لأنّهم كافرون اتّخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرّتهم الحياة الدّنيا . إنّهم يُنسَوْن فى النّار لأنّهم نسوا يوم القيامة ولأنّهم جحدوا آيات الله تعالى .

الآيتـان رقـم (٤٤ ، ٤٥)

قال تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا قالو نعم . فأذّن مؤذّنٌ بينهم أن لعنة الله على الظّالمين . الّذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة كافرون﴾.

إنّ أوّل ما يلفت النّظر فى مجال المقارنة بين القولين فى حقّ كلٍّ من أصحاب الجنّة وأصحاب النّار اتّصال ضمير جماعة المتكلّمين بجملة وعد فى حقّ المؤمنين وعدم اتصال ضمير جماعة المخاطبين بالجملة ذاتها فى حقّ الكافرين . قال تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا ﴾ بمعنى أنّ القول فى حقّ أصحاب النّار لا يجىء فى هذه الصّيغة : فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّا ، وفى عدم مجىء الضّمير فى حقّ أصحاب النّار التّنبيه إلى أنّ الكافرين قد كانت عندهم الفترة الكافية كي يروا رأيهم ويتدبّروا أمرهم ويهجروا الكفر إلى الإيمان كي يتحوّلوا بفضل الله تعالى من كونهم أصحاب النّار إلى أصحاب الجنّة . ووراء ذلك فإنّ هذا القول : ﴿ وعد ربّكم ﴾ إذا كان صدره : ﴿ وعد ﴾ ينبّه إلى الوقت الكافى فى الحياة الدّنيا كي يصحّح الكافرون خطأهم ، فإنّ القول خطابًا لأصحاب النّار : ﴿ ربّكم ﴾ ينبّه إلى أنّ المؤمنين يوم القيامة لم يستعملوا ضمير المخاطبين إلاّ بعد أن تأكّد لهم أنّ المخاطبين هم أصحاب النّار لأنّهم آنذاك فى أعماقها يَصْلَوْن حرّها وأذاها . وكما كان عدم مجىء الضّمير فى القول : ﴿ وعد ربّكم ﴾ لافتاً للنّظر فى حقّ أصحاب النّار كان مجىء الضّمير فى القول : ﴿ وعدنا ربّنا ﴾ لافتاً للنّظر فى حقّ أصحاب الجنّة . إنّ مجىء الضّمير فى القول : ﴿ وعدنا ربّنا ﴾ ينبّه إلى ثقة المؤمنين فى وعد الله تعالى لهم على لسان رسول الله تعالى إليهم بأنّهم المهتدون إلى صراط الله تعالى المستقيم

بقدر تنبيه عدم مجيء الضمير فى القول : ﴿ وعد ربّكم ﴾ إلى إمهال الله تعالى للكافرين وإملائه لهم كي يتحوّلوا إلى الصّراط المستقيم قبل فوات الأوان . ومن البيّن أنّ بعض الذّين أملى الله تعالى لهم قد استفادوا من فترة الإمهال فانصاعوا للحقّ . وربّما كان من أصحاب الجنّة المنادِين آنذاك أصحابَ النّار من استفاد من فترة الإمهال ، وفى نجاة هؤلاء من النّار ودخولهم الجنّة زيادة إيضاح لدور جملة « وعد » فى حقّ الكافرين الّتى لم يلحق بها ضمير جماعة المخاطبين .

ونستطيع أن نفهم من مجيء الضّمير مرّة وعدم مجيئه أخرى أنّ الدّعاة إلى الله تعالى عليهم مضاعفة الجهود فى الدّعوة إلى سبيل ربّهم جلّ وعلا بالحكمة وبالموعظة الحسنة ، وعليهم فى الوقت ذاته تأجيل الحكم بكون من لم يستجب ويؤمن من أصحاب النّار حتّى الوقت المناسب .

وإنّ جملة ﴿ ونادى ﴾ الّتى تُصَدَّر بها أولى الآيتين الكريمتين تشير إلى البعد الضّروريّ بين مكان أصحاب الجنّة ومكان أصحاب النّار . والمعروف أنّ بين الجنّة والنّار سورًا سمّيت سورة الأعراف الكريمة هذه به . وكما نستطيع أن نفهم طبيعة هذا السّور من آيات هذا القسم نستطيع أن نفهم تلك الطبيعة من هذه الآيات الكريمات من سورة الحديد(١) قال تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا فَضُرِب بينهم بسورٍ له بابٌ باطنه فيه الرّحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنّكم فتنتم أنفسكم وتربّصتم وارتبتم وغرّتكم الأمانيّ حتّى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغَرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فديةٌ ولا من الّذين كفروا . مأواكم النّار هي مولاكم وبئس المصير ﴾ والمعروف أنّ المنافقين الّذين يدّعون الإيمان أسوأ من الكافرين الّذين يعلنون الكفر ، ومن هنا كان المنافقون فى الدّرك الأسفل من النّار . كما نستطيع أن نفهم طبيعة الأعراف من قوله تعالى فى سورة

---

(١) الآيات ١٣ ـ ١٥ .

الصّافّات[١] : ﴿ فأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون . قال قائلٌ منهم إنّى كان لى قرين . يقول أئنّك لمن المصدّقين . أئذا مِتْنا وكنّا ترابًا وعِظامًا أئنّا لمدينون . قال هل أنتم مطّلعون . فاطّلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدتَ لتردين . ولولا نعمة ربّى لكنت من المُحْضَرين ﴾ .

وبسبب ملازمة المؤمنين الجنّة والكافرين النّار قيل أصحاب الجنّة وأصحاب النّار[٢] إنّ أصحاب الجنّة قد وجدوا ما وعدهم ربّهم جلّ وعلا حقًّا وصدقًا ووجدوا ما وعد الله تعالى الكافرين أصحاب النّار حقًّا وصدقًا . وبشأن النّعيم المقيم الّذى هم فيه يجىء القول على لسانهم : ﴿ قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا ﴾ ولضمير جماعة المتكلّمين فى المواضع الثّلاثة دورٌ معنوىّ وصوتىّ ، كما أنّ للفظ الرّبّ فى القول : ﴿ ربّنا ﴾ وفى القول : ﴿ ربّكم ﴾ دورًا فى التّنبيه على تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه . والعجيب فى شأن أصحاب النّار أنّهم لم يقوموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمه وآلائه بل قاموا بالكفر والكفران فاستحقّوا دخول النّار كما استحقّوا أن يسألهم أصحاب الجنّة فى أسلوب التّقريع والتّبكيت : ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا ﴾ .

وهل يستطيع أصحاب النّار أن يكون جوابهم غير : ﴿ نعم ﴾ ؟ لا يستطيعون قطعًا . وهنا ينادى منادٍ ويؤذّن مؤذن أن لعنة الله تعالى والطّرد من رحمته جلّ وعلا على الظّالمين الّذين أشركوا مع الله تعالى فى العبادة سواه ، كما أنّهم صرفوا العبادة عن الله تعالى الّذى يستحقّها جل وعلا وحده دون سواه . وفى ذكر الظّلم فى القول : ﴿ فأذّن مؤذّنٌ بينهم أن لعنة الله على الظّالمين ﴾ تنبيهٌ على الشّرك الّذى تورّط فيه أصحاب النّار . وقد جاء فى سورة لقمان[٣] قوله تعالى : ﴿ إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ وفى مجىء ظرف المكان : ﴿ بينهم ﴾ تعميقٌ لسُورِ الأعراف بين

---

(١) الآيات ٥٠ ـ ٥٧ (٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « صحب » ٢٧٥ .

(٣) الآية .

الجنّة والنّار .

ومن البيّن مجيء الجمل فى الآية الكريمة فى صيغة الزّمن الماضى وكأنّها لصدقها قد تحقّقت فعلاً . فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية تبيّنّا أنّنا بصدد جملة الفعل المضارع الّذى يدلّ على الاستمرار والتّجدّد ، والجملة الاسميّة الّتى تدلّ على الرّسوخ والثّبات . وفى كلٍّ من الجملتين وصفٌ لواقع أصحاب النّار فى الحياة الدّنيا، وتحذيرٌ من اتّباع خطوات الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء . إنّ الكافرين ظالمون بتورّطهم فى الشّرك ووراء ذلك هم يصدّون الآخرين عن سبيل الله تعالى ، ويريدون الطّريق معوجّة ويبغون السّبيل ملتوية ، ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ ولا يخفى علاقة جملة: ﴿ ويبغونها عوجا ﴾ بالبغى على نحوٍ من الأنحاء.

وإذا كنّا قد فهمنا من ظرف المكان فى القول : ﴿ فأذّن مؤذّنٌ بينهم ﴾ شيئًا من صفة الأعراف وهو السّور الفاصل بين الجنّة والنّار ، فإنّ السّياق يتحوّل إلى الحديث عن ذلك السّور وعن أصحابه فإلى .

الآيـــة رقم (٤٦)

قال تعالى : ﴿ وبينهما حِجاب . وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاًّ بسيماهم . ونادَوْا أصحاب الجنّة أن سلامٌ عليكم . لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ .

بشأن هذا الحجاب بين أصحاب الجنّة وأصحاب النّار ، نستطيع أن نفهم أنّه حجابٌ يمنع من وصول لذّة أهل الجنّة إلى أهل النّار وأذيّة أهل النّار إلى أهل الجنّة(١) وإذا كان هذا الحجاب أو السّور يفصل بين نعيم أهل الجنّة وعذاب أهل النّار فإنّه وراء ذلك المكان البارز بطبعه المرتفع ، وتفهم طبيعة علوّه من الاسم الّذى أطلق

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « حجب » ١٠٨

عليه : « الأعراف » والأعراف جمع واحدها عُرْف . وكلّ مرتفعٍ من الأرض عند العرب عُرْف . وإنّما قيل لعرف الديك عرفٌ لارتفاعه على ما سواه من جسده(١).

ومعنى هذا القول : ﴿ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاًّ بسيماهم ﴾ وعلى الأعراف رجالٌ وقومٌ استوت حسناتهم وسيّئاتهم فقعدت بهم سيّئاتهم عن الجنّة وخلفت بهم حسناتهم عن النّار(٢) يعرفون كلاًّ من أصحاب الجنّة وأصحاب النّار بسيماهم وعلامتهم(٣) يعرفون أهل الجنّة ببياض وجوههم ونضرة النّعيم عليها ، وأهل النّار بسواد وجوههم وزرقة أعينهم(٤) وبذلك نكون بصدد ثلاث فئات ، أصحاب الجنّة وأصحاب النّار وأصحاب الأعراف . وواضحٌ الجناس غير التّامّ بين : ﴿ الأعراف ﴾ و: ﴿ يعرفون ﴾ .

وإنّ لأصحاب الأعراف مع كلٍّ من الفريقين موقفًا . وإنّ فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها الموقف من أصحاب الجنّة . وذلك فى القول : ﴿ ونادوا أصحاب الجنّة أن سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ إنّ أصحاب الأعراف كي يضمنوا وصول السّلام إلى أصحاب الجنّة يضطرّون لرفع أصواتهم بالنّداء : ﴿ونادوا أصحاب الجنّة أن سلامٌ عليكم ﴾ والسّلام بمعنى الأمن والطّمأنينة . وإنّ أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنّة وهم يطمعون فى دخولها : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ والطّمَع نزوع النّفس إلى الشّىء شهوةً له(٥) وإنّما لم يدخل أصحاب الأعراف الجنّة لأنّ سيّئاتهم الّتى استوت بالحسنات قصّرت بهم عن الجنّة(٦) .

وبشأن القول : ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ نستطيع أن نتبيّن من القول : ﴿ لم يدخلوها ﴾ أنّ عدم الدّخول فى الجنّة يصحّ أن يكون بمانعٍ خارجىّ كما يصحّ أن يكون بباعثٍ داخلىّ ، بمعنى أنّ أصحاب الأعراف بسبب قصور أعمالهم الحسنة

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٣٦ .

(٢) انظر تفسير الطّبريّ ٨ / ١٣٧ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢١٦ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « سوم » ٢٥١ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٤٠ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « طمع » ٣٠٧ .

(٦) تفسير الطّبريّ ٨/١٣٧ .

عن إدخالهم الجنّة فى حكم المستسلم اضطرارًا لما يعلم أنّه عدلٌ فى حقّه لهذا هم أنفسهم لم تكن منهم محاولةٌ لدخول الجنّة . وإنّ هذا الامتناع الذّاتى من محاولة دخول الجنّة بسبب اليأس من ارتقاء أعمالهم الحسنة إلى مستوى الاستحقاق للجنّة ، وإنّ هذا الكبح المضنى لجماحهم يغذّيه القول : ﴿ وهم يطمعون ﴾ والمعنى وهم يطمعون فى دخول الجنّة برحمة الله تعالى وفضله وليس بأعمالهم . وبهذا يكون أصحاب الأعراف ممزّقين نفسيًّا . إنّهم من ناحية الأعمال الحسنة فى حكم اليائسين فهم مستسلمون . وإنّهم من ناحية رحمة الله تعالى وفضله آملون طامعون .

ويلاحظ أنّ أصحاب الأعراف بشأن أصحاب الجنّة لا يتجاوزون القول المتمثّل فى إلقاء السّلام ولا يتخطّون مجرّد الطّمع فى دخول الجنّة بفضل الله تعالى ومنّه . ومع أنّ أصحاب الأعراف بشأن أصحاب النّار لا يتجاوزون القول فإنّه قولٌ يميل إلى الطّول بالقياس إلى ذلك الموقف العصيب ، ويسبق ذلك القول خوفٌ مساوٍ للطّمع وإشفاقٌ أن يجعلهم ربّهم جلّ وعلا مع القوم الظّالمين . فمع الخوف والإشفاق أوّلاً فإلى .

الآيــة رقــم (٤٧)

قال تعالى : ﴿ وإذا صُرِفَتْ أبصارهم تلقاء أصحاب النّار قالوا ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظّالمين ﴾ .

من الطّبيعيّ أن يكون اندفاع أصحاب الأعراف تجاه أصحاب الجنّة بباعثٍ داخليّ ، فما الّذى يلاحَظُ على موقفهم من أصحاب النّار ؟ الّذى يلاحظ أنّ انصراف أصحاب الأعراف إلى أصحاب النّار بصارفٍ خارجيّ : ﴿ وإذا صُرِفَتْ أبصارهم تلقاء أصحاب النّار ﴾ وكأنّ أصحاب الأعراف مندفعون تجاه أصحاب الجنّة بأحاسيسهم ومشاعرهم وأبصارهم وأجسادهم . ولأسبابٍ خارجيّة قاهرة

يضطرّ أصحاب الأعراف لصرف أبصارهم عن أصحاب الجنّة إلى أصحاب النّار . والأبصار هنا الجوارح النّاظرة[١] والعيون المبصرة . إنّ أصحاب الأعراف إذا صُرِفت أبصارهم حيال[٢] أصحاب النّار وجِهَتهم[٣] يفرّون إلى أحكم الحاكمين بارئهم جلّ وعلا ومربّيهم بنعمه قائلين : يا ربّنا لا تجعلنا فى النّار مع القوم الظّالمين المشركين الّذين وضعوا العبادة فى غير موضعها بأن من صرفوها إلى غير الله تعالى . ويصحّ أن يكون الصّارف الخارجيّ لأبصار أصحاب الأعراف هو صراخ أصحاب النّار بسبب العذاب الأليم . ونستطيع أن نفهم أنّ أصحاب الأعراف لم يكن لديهم لحظةً من اللّحظات الاستعداد لإلقاء أبسط نظرةٍ عابرةٍ على أصحاب النّار . إنّهم اتّجهوا إلى أصحاب النّار بفعل ذلك الصّارف الخارجيّ الّذى ينبغى أن يكون قويًّا أثره ، فوقعت عيونهم على رجالٍ معيّنين يعرفونهم بعلاماتهم فما كان من أصحاب الأعراف إلاّ أن جرى على ألسنتهم الآيتان الكريمتان التّاليتان وهما .

الآيتان رقم (٤٨ ، ٤٩)

قال تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الّذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة. ادخلوا الجنّة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

تذكّرنا الآيتان الكريمتان بمثل قوله تعالى فى سورة الصّافّات[٤] : ﴿ فأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون . قال قائلٌ منهم إنّى كان لى قرين . يقول أئنّك لمن المصدّقين. أئذا مِتْنا وكنّا ترابًا وعظامًا أئنّا لمدينون . قال هل أنتم مطّلعون . فاطّلع فرآه فى سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتُرْدين . ولولا نعمة ربّى لكنت من المُحْضرين﴾

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بصر » ٤٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٤١ .

(٣) الجلالين .

(٤) الآيات ٥٠ ـ ٥٧ .

إنّ ربّ العزّة يملأ بإرادته جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين . وإنّ ربّ العزّة بإرادته يمكّن القرين من أصحاب الجنّة أن يرى القرين من أصحاب النّار، ويمكّن أصحاب الأعراف أن يروا رجالاً بأعيانهم سبق أن رأوهم فى الحياة الأولى وكانت منهم محاولةٌ لإضلال المؤمنين وغمزٌ للمؤمنين بسبب فقرهم وضعفهم . إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ أصحاب الأعراف ينادُون من بين أصحاب النّار رجالاً يعرفونهم بسيماهم وعلامتهم من سواد الوجوه وزرقة العيون . إنّ النّداء ينبّه إلى البعد الضّروريّ بين الفريقين . وإنّ مجىء جملة : ﴿ ونادى ﴾ فى صيغة الزّمن الماضى تنبّه إلى ثبوت تحقّق النّداء فكأنّه مضى وانقضى . وإنّ مجىء جملة : ﴿ يعرفونهم بسيماهم ﴾ فى الزّمن المضارع ينبّه إلى أنّ أصحاب الأعراف يعرفون أولئك الرّجال المعيّنين من أصحاب النّار بسبب ما وقع بينهم من حوارٍ ولقاءٍ فى الحياة الدّنيا ، وهذا المعنى مفهومٌ ضمنًا ، وبسبب علامة أهل النّار الثّابتة من سواد وجوههم ، وذلك على نحو ما تبيّن من القول فى آيةٍ كريمةٍ سابقة : ﴿ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ .

وكما جاءت جملة النّداء فى صيغة الزّمن الماضى : ﴿ ونادى ﴾ جاءت جملة القول : ﴿ قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾ إنّ أصحاب الأعراف يقولون لأصحاب النّار الّذين عرفوهم فى الحياة الدّنيا وينادونهم بصوتٍ مرتفع مقرّعين موبّخين : ما أغنى عنكم جمعكم المال الوفير ، وما صرف عنكم عذاب النّار عددكم الكثير ، وما نفعكم فى هذا الموقف العصيب استكباركم فى الحياة الدّنيا عن عبادة الله تعالى وتعاليكم على عباد الله تعالى المؤمنين وبخاصّةٍ الفقراء منهم .

وفى الآية الكريمة الأخرى يستمرّ أصحاب الأعراف فى تأنيبهم لأصحاب النّار وذلك فى هيئة الاستفهام الإنكاريّ : ﴿ أهؤلاء الّذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ أهؤلاء ضعفاء المؤمنين وفقراؤهم من أصحاب الجنّة ونعيمها المقيم الّذين أقسمتم

بالله تعالى العظيم كذبًا وزورا ، خصامًا وفجورا ، أنّ الله سبحانه وتعالى لن ينالهم برحمته ، ولن يشملهم بعطفه ، ولن يدخلهم جنّته ، بل يقذف بهم فى ناره وجحيمه ؟ ويواصل أصحاب الأعراف الحديث وتبكيت أصحاب النّار قائلين : لقد قيل لأولئك المؤمنين الّذين كانت تزدريهم أعينكم وتحتقرهم نفوسكم : ﴿ اُدْخلوا الجنّة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ إنّ أولئك المؤمنين بشّرتهم ملائكة الرّحمة منذ أن توفّتهم الملائكة طيّبين إلى أن دخلوا جنّات النّعيم بأنّهم لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة ، ولا هم يحزنون على أيّ شيءٍ خلّفوه وراءهم من أمور الدّنيا من مالٍ وجاه وأهل . إنّ الآخرة فى حقّ هؤلاء خيرٌ من الأولى ، وإنّهم الآن يرفلون فى نعيم الجنّة المقيم وخيرها العميم .

وإنّ مِنْ أهمّ ما يلفت الانتباه بشأن أصحاب الأعراف أنّهم وهم الّذين زُحْزِحوا من النّار لهم مطلبٌ عزيز المنال وهو أن يدخلوا الجنّة . ولمّا كان دخول الجنّة إنّما يتمّ بإذن الله تعالى وحده لا شريك له ، ولمّا كان أصحاب الأعراف الّذين استوت حسناتهم وسيّئاتهم لا يجهلون أنّ استواء الحسنات والسّيّئات معناه أنّه كما يصحّ فى حقّهم الارتفاع إلى الجنّة يصحّ السّقوط فى النّار لذاهم يسألون ربّهم جلّ وعلا وحده لا شريك له ألاّ يجعلهم فى النّار مع القوم الظّالمين . أمّا دخول الجنّة فإنّه يظلّ حبيس طمع أصحاب الأعراف وبقائه طيّ أعماقهم . وإنّ مِنْ أهمّ ما يلفت الانتباه كذلك بشأن أصحاب النّار أنّهم وهم الموقنون باستحقاقهم دخول النّار لهم فى ضوء هذا الإيقان باستحقاق دخول النّار وخلودهم فيها مطلبٌ عزيز المنال هو الآخر . إنّ مطلبهم أو طمعهم واقعيّ من جهتين اثنتين . إنّهم من ناحيةٍ يتوجهون بطلبهم إلى أصحاب الجنّة الّتى فرّطوا فيها ، وإنّهم من ناحيةٍ أخرى يطلبون الماء والطّعام . ولا يجيب أصحاب الجنّة طلب أصحاب النّار . وحول هذه المعانى تحدّثت .

الآيتـان رقـم (٥٠ ، ٥١)

قال تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النّار أصحاب الجنّة أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله قالوا إنّ الله حرّمهما على الكافرين . الّذين اتّخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرّتهم الحياة الدّنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ .

نستطيع أن نفهم من جملة : ﴿ ونادى ﴾ بُعْدَ ما بين أصحاب الجنّة وأصحاب النّار مكانًا ومكانة . إنّ من سمات الجنّة العلوّ والرّفعة ، ومن سمات النّار الانخفاض والضّعة . وإنّ أصحاب النّار الّذين يتجرّعون غصص العذاب الأليم لا يخفى عليهم تقلّب أصحاب الجنّة فى النّعيم المقيم . ولمّا كان الشّراب والطّعام أهمّ مقوّمات النّعيم وكان شراب أصحاب النّار وطعامهم أسوأ شرابٍ وطعام فقد طلب أصحاب النّار من أصحاب الجنّة شيئًا من الفائض لديهم من الشّراب والطّعام . إنّ جملة ﴿أفيضوا ﴾ نبّهت إلى الفائض من الشّراب والطّعام . وبما أنّ الحاجة إلى الماء تتقدّم الحاجة إلى الطّعام فقد طلب أصحاب النّار الماء أوّلاً . ويصحّ أن نفهم من حرف الجرّ ﴿ على ﴾ الدّالّ على الاستعلاء فى القول : ﴿ أفيضوا علينا من الماء ﴾ استعلاء أصحاب الجنّة على أصحاب النّار ، كما يصحّ أن نفهم من طلب أصحاب النّار إفاضة أصحاب الجنّة الماء عليهم ابتداءً حاجتهم الملحّة إلى الماء ، ليس لدفع العطش الدّاخليّ وحده بل ومن أجل تلطيف حرارة الجوّ الخارجيّ كذلك . ويلاحظ بشأن الماء طلب الماء المطلق دليلاً على علمهم بتدفّق أنهاره فى سائر أنحاء الجنة : ﴿أفيضوا علينا من الماء ﴾ كما يلاحظ بشأن الرّزق نسبتهم له إلى الذّات العليّة دليلاً على علمهم بأنّ ثمّة نوعًا معيّنًا من الرّزق خصّ الله تعالى به أصحاب الجنّة وليس أيّ طعام يسدّ به الرّمق وتدفع به غائلة الجوع . وكأنّ فى التّحوّل من الماء إلى الرّزق

تدرّجًا من أصحاب النّار فى الطمع من الماء إلى ما رزق الله تعالى أصحاب الجنّة : ﴿ أو ممّا رزقكم الله ﴾ .

وكان الرّدّ من أصحاب الجنّة فى هيئة صفعةٍ واحدةٍ لأصحاب النّار : ﴿ قالوا إنّ الله حرّمهما على الكافرين ﴾ إنّ الماء وهو فى العُرْف أهون موجود وإنّ الرّزق بمعنى الطّعام ، قد حرّمهما الله تعالى على أصحاب النّار ومن باب الأَوْلى ما وراء الماء والطّعام من نعيم . وتصف الآية الكريمة أصحاب النّار بأسوأ صفاتهم وأهمّها وهي صفة الكفر .

وفى الآية الكريمة التّالية تفصيلٌ لمعنى الكفر وتبيينٌ للحكمة من تحريم الماء والطّعام على أصحاب النّار . إنّ الكافرين هم الّذين اتّخذوا فى الحياة الدّنيا دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ لهوًا ولعبًا ، استهزاءً وسخرية ، وغرّتهم الحياة الدّنيا ، وفتنتهم بزخرفها وبهرجها ، وصرفتهم عن الدّين الحقّ والحياة الجادّة . إنّ الكافرين يوم القيامة سوف يُتْركون فى النّار ويُنْسَوْن فيها كما نسوا فى الحياة الأولى لقاء يوم القيامة العصيب الّذى يصْلَوْن ناره ، وكما كانوا بآيات الله تعال البيّنات يجحدون ، رغم بلوغ نفوسهم مرتبة الاستيقان بأنّ تلك الآيات موحًى بها من ربّ العالمين ، بواسطة مَلَكٍ كريمٍ ، إلى نبٍّى كريم ورسولٍ عظيم . إنّ النّصّ على جحد الكافرين آيات الله تعالى البيّنات يذكّرنا بمثل قوله عزّ من قائل ، عن فرعون وقومه ، بشأن آيات موسى عليه السّلام التّسع ، فى سورة النّمل[1] : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

---

(١) الآيـــة ١٤ .

[٦]

« الله تعالى الّذى له الخلق والمعاد صرّف آيات
الكتاب المفصّل فاتّبعوه واشكروا له تفوزوا »

الآيـــات (٥٢ ـ ٥٨)

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ
قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ
وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

دارت آيات القسم السّابق حول أصحاب الجنّة وأصحاب النّار وأصحاب الأعراف وما جرى بينهم من حوار وخلود أصحاب النّار فى الجحيم بسبب تركهم فى الدّنيا الإيمان والعمل الصّالح ليوم القيامة وتكذيبهم آيات الله تعالى . وتبدأ آيات هذا القسم بالحديث فى آيات الله تعالى المتمثّلة فى الكتاب العزيز الّذى أوحاه جلّ وعلا لخاتم النّبيّين ﷺ وفصّل معانيه وأحكامه وكلّ مسائله وجعله هدًى للنّاس من الضّلالة ورحمةً للمؤمنين . وإنّ كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم من المكذّبين هل ينتظرون إلاّ تأويل ما فى القرآن الكريم من غيوب ومنها انتصار المؤمنين واندحار الكافرين ، ومنها البعث بعد الموت للحساب والجزاء وفى ذلك اليوم العظيم يقول الّذين اتّخذوا هذا القرآن الكريم مهجورًا وكفروا : لقد جاء رسول الله تعالى إلينا بالحقّ من ربّنا جلّ وعلا كما جاءت الرّسل الأمم السّابقة : ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردُّ فنعملَ غير الّذى كنّا نعمل ﴾ إنّ أولئك : ﴿ قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ وبعد الحديث عن القرآن الكريم الّذى فيه من الأسرار كما فى السّماوات والأرض يتحوّل الحديث إلى السّماوات والأرض وما فيهنّ من زاوية الخلق والإبداع الّتى تتلوها زاوية الأمر والحكم . إنّ خالق السّماوات والأرض والشّمس والقمر واللّيل والنّهار وكلّ هذا الملكوت ينبغى أن يكون له وحده دون سواه الأمر والحكم : ﴿ تبارك الله ربّ العالمين ﴾ ومن مظاهر الأمر والحكم فى الآيات الكريمات الأمر بدعاء الله تعالى وحده لا شريك له تضرّعًا وتذلّلاً ، خفيةً وسرًّا ، فالله تعالى لا يحبّ المعتدين فى كلّ شىء ، بما فى ذلك المعتدون برفع الصّوت فى أثناء الدّعاء ، وكذلك الأمر بدعاء الله تعالى خوفًا من عذابه وطمعاً فى ثوابه . وحينما يكون ثمّة دعاءٌ كما أمر الله تعالى ، وعملٌ للصّالحات وفى عمل الصّالحات امتثالٌ للنّهي عن الإفساد فى الأرض ، يكون كلّ ذلك بفضل الله تعالى

مظنّة استمطار رحمة الله تعالى القريب من المحسنين . وبذلك يكون الارتقاء بعون الله تعالى إلى مرتبة الإحسان قائماً على التّحلّى بالفضائل والتخلّى عن الرّذائل .

وبشأن القول : ﴿ إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ الّذى يجىء فيه : ﴿ قريبٌ ﴾ مراعيًا لفظ الجلالة المذكّر تبيّن أنّ لفظ : ﴿ قريب ﴾ يلتفت بوجهٍ إلى لفظ الرّحمة فيلبّى بمجيئه داعي النّفس الّتى تتوقّع مجيئه دليلاً على رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىءٍ وبخاصّةٍ المحسنون ، ويلتفت بوجهٍ إلى لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ القريب من المحسنين ، وفى قربه جلّ وعلا قربٌ لرحمته الواسعة . وبعد الحديث فى جانبى الخلق والأمر يتحوّل السّياق إلى موضوعٍ يشمل الخلق والأمر معًا ، ويأخذ الحديث مظهر الخلق ظاهراً الأمر باطنًا . أمّا جانب الخلق فإنّه ذو شقّين . الشّقّ الأوّل يتحدّث فى إرسال الله تعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شىء الرّياح بين يدي رحمته بإنزال المطر حتّى إذا حملت الرّياح اللّواقح سحابًا ثقالاً بالماء ساقه الله تعالى لبلدٍ ميّت فأنزل به جلّ وعلا الماء فأخرج به عزّ وجلّ نبات كلّ شىء . ويترتّب على هذا الشّقّ الظّاهر شقٌّ باطنٌ هو الإيمان وعمل الصّالحات ليوم القيامة الّذى يخرج فيه الخلائق من الأرض الميتة أحياء على غرار خروج النّبات من الأرض الميتة . والشّقّ الآخر من جانب الخلق يتحدّث فى نوعين من الأرض يختلف استقبالهما للمطر اختلافًا كاملاً . إنّ التّربة الخصبة يخرج نباتها بإذن ربّها طيّبًا مباركًا ، وإنّ التّربة الرّديئة يخرج نباتها نكدًا وعسرًا . ويترتّب على هذا الشّقّ الظّاهر الآخر شقّ باطنٌ هو اختلاف تلقّى المؤمنين لآي الذّكر الحكيم اختلافًا بيّنًا عن تلقّى الكافرين . وإنّ الّذى لفت الانتباه إلى الشّقّين الباطنيين التّذييلان فى الآيتين الكريمتين . التّذييل فى الأولى : ﴿ كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون ﴾ والتّذييل فى الأخرى : ﴿ كذلك نصرّف الآيات لقومٍ يشكرون ﴾ وإنّ الحديث عن ماء الأرواح أعنى القرآن الكريم فى أثناء الحديث عن ماء الأجساد ، وإنّ الحديث عن اختلاف تلقّى المؤمن وغير المؤمن لآي الذّكر الحكيم يذكّرنا كلٌّ بالمثلين المائيّ

والنّاريّ فى الآية الكريمة السّابعة عشرة من سورة الرّعد وبالآيات الكريمات ٤٨ ـ ٥٤ من سورة الفرقان الّتى تتحدّث عن أنواع المياه ، ومنها ماء السّماء الطّهور المتعلّق بالأجساد وماء وحي القرآن الكريم المتعلّق بالأرواح .

الآيـــة رقـم (٥٢)

قال تعالى : ﴿ ولقد جئناهم بكتابٍ فصّلناه على علمٍ هدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾ .

من المعروف أنّ جملة : ﴿ جاء ﴾ تُستَعْمَل فى القرآن الكريم دليلاً على القُرْب. وهي هنا تشير إلى القرب المكانى وتفيد الوصول الفعليّ لهذا الكتاب العزيز والقرآن الكريم إلى كفّار مكّة . ومن البيّن أسلوب القَسَم فى القول : ﴿ ولقد جئناهم ﴾ فاللاّم هي الموطّئة للقَسَم . وهذا الكتاب العزيز قد فصّله ربّ العزّة على علمٍ منه جلّ وعلا . وهذا التّفصيل يذكّرنا بمثل قوله تعالى فى سورة فصّلت(١) : ﴿ كتابٌ فصّلت آياته قرآنًا عربيًّا لقومٍ يعلمون ﴾ وبمثل قوله تعالى فى سورة هود(٢) : ﴿ الّر. كتابٌ أُحْكِمَتْ آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيمٍ خبير ﴾ فهذا الكتاب العزيز قد فصّل الحكيم الخبير معانيه وأحكامه وقصصه ومواعظه . وإنّ القول : ﴿ على علم﴾ يذكّرنا بمثل قوله عزّ من قائل فى هذه السّورة الكريمة(٣) : ﴿ فلنسألنّ الّذين أُرْسل إليهم ولنسألنّ المُرْسلين . فلنقصّنّ عليهم بعلمٍ وما كنّا غائبين ﴾ وإنّ علم الله تعالى المحيط الّذى تشير إليه الآية الكريمة يذكّرنا بمثل هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان ، وفيها النّصّ على أنّ منزل القرآن الكريم هو الله تعالى عالم السّرّ فى السّماوات والأرض . قال تعالى(٤) : ﴿ قل أنزله الّذى يعلم السّرّ فى السّماوات والأرض . إنّه كان غفوراً رحيماً ﴾ .

---

(١) الآيــة ٣ .
(٢) الآيــة ١ .
(٣) سورة الأعراف ٦ ، ٧ .
(٤) سورة الفرقان ٦ .

وهذا الكتاب العزيز هدًى من الضّلالة ورحمةٌ للمؤمنين ، فقد تكفّل الله تعالى لمن اتّبع هذا الكتاب الهدى من الله تعالى بألاّ يضلّ فى الدّنيا ولا يشقى فى الآخرة. جاء فى سورة الإسراء(١) قوله تعالى : ﴿ إنّ هذا القرآنَ يهدى للّتى هي أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرًا كبيراً ﴾ وجاء فى سورة طه(٢) قوله تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعضٍ عدوّ . فإمّا يأتينّكم منّى هدًى فمن اتّبع هُداي فلا يضلّ ولا يشقى ﴾ وإنّ عدم الضّلالة فى الأولى أي الهداية ، وعدم الشّقاوة فى الآخرة أي السّعادة ، يعنى كلّ ذلك الحياة الطّيّبة فى الأولى والآخرة . جاء فى سورة النّحل(٣) قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ .

وحينما يكون القرآن الكريم هدًى ورحمةً للمؤمنين يكون الّذين لا يؤمنون فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى . وقد جاء فى هذا المعنى قوله تعالى فى سورة فصّلت(٤) : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجميًّا لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياته . أأعجميٌّ وعربيّ. قل هو للّذين آمنوا هدًى وشفاءٌ والّذين لا يؤمنون فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى. أولئك ينادَوْن من مكانٍ بعيد ﴾ .

وحينما يكون الكثير من كفّار مكّة من مات على كفره فذلك معناه أنّهم من أصحاب النّار الّذين تحدّثت عنهم آيات القسم السّابق والّذين سوف يجدون ما وعدهم ربّهم جلّ وعلا من العذاب فى النّار حقًّا وصدقًا ، والّذين سوف يبكّتهم أصحاب الأعراف ، والّذين سوف يُتْرَكون فى العذاب بسبب تكذيبهم آي الكتاب العزيز ونسيانهم يوم القيامة .

وتستمرّ الآية الكريمة التّالية فى الحديث عن الكافرين فإلى .

---

(١) الآية ٩ .
(٢) الآية ١٢٣ .
(٣) الآية ٩٧ .
(٤) الآية ٤٤ .

الآيـــة رقـــم (٥٣)

قال تعالى : ﴿ هل يَنْظُرون إلاّ تأويلَه . يوم يأتى تأويلُه يقول الّذين نَسُوه من قبل قد جاءت رسل ربّنا بالحقّ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردُّ فَنَعْمَلَ غير الّذى كنّا نعمل . قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

لقد أرسل الله تعالى محمّد بن عبد الله ﷺ إلى النّاس كافّةً واصطفاه بأشرف الكتب السّماويّة وكان موقف كفّار مكّة المكرّمة الرّفض من الرّسالة والرّسول والكتاب ، رغم نزول القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين وكون أهل مكّة أرباب الفصاحة وفرسان البيان . وإنّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ هل ينظرون إلاّ تأويله ﴾ لتسأل فى إنكار : هل ينتظر كفّار مكّة إلاّ تأويل هذا الكتاب العزيز وما جاء فيه من غيوبٍ منها ما يخصّ كفّار مكّة كأن ينصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين ويهزم كفّار مكّة الّذين سيولّون الدّبر فى غزوة بدر ، وتتّسع رقعة الإسلام وأرضه على حساب الكفّار ، ومنها ما يعمّ كفّار مكّة وسواهم . إنّ لسان حال الجزئية الكريمة يقول : إنّ الأَوْلى بكفّار مكّة أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين . والمعروف أنّ من بقيَ من أهل مكّة على كفره تحقّق بشأنه غيوب القرآن الكريم المتعلّقة بالكافرين من أهل مكّة .

على أنّ أكبر غيوب القرآن الكريم فى حقّ كفّار مكّة وغيرهم من الكافرين هي المتعلّقة بكونهم يوم القيامة سيكونون جميعاً من أصحاب النّار على نحو ما تبيّن من آيات القِسْم السّابق وعلى نحو ما يتبيّن من الآية الكريمة الّتى نحن بصددها فى الجزئيّة الكريمة التّالية . إنّ الجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ يوم القيامة حينما يأتى تأويله ، ويلاحظ مجيء جملة : ﴿ يأتى ﴾ الّتى تدلّ هنا على البعد الزّمانيّ ، وحينما يكون يوم القيامة

الّذى نبّه عليه القرآن وأمر بالاستعداد له ، حقيقةً وواقعاً ، يقول الكافرون الّذين نسوه من قبل فى الحياة الدّنيا قد جاءتنا رسل ربّنا بالحقّ ولكنّا يا حسرتنا على ما فرّطنا فى جنب الله تعالى . ويلاحظ أنّ الحديث على لسان الكافرين عن الرّسل يجىء فى صيغة الجمع : ﴿ قد جاءت رسل ربّنا بالحقّ ﴾ لأنّ كلّ رسل الله تعالى بعثهم الله تعالى بدين الإسلام بمعنى إفراد الله تعالى بالعبادة والعمل فى الدّار الأولى للدّار الآخرة دار الجزاء ، الثّواب أو العقاب . وبما أنّ الكافرين نسوا يوم القيامة ونسوا لقاء ربّهم جلّ وعلا فكان حظّهم من العذاب الأليم كبيراً ، لذا فإنّهم يتمنّون أن لو كان لهم فى ذلك اليوم العصيب شفعاء يشفعون لهم . ولمّا كان مبدأ الشّفاعة فى حقّ الكافرين مرفوضًا يوم القيامة فإنّهم يتمنّون لو أنّهم رُدّوا إلى الحياة الدّنيا دار العمل كي يعملوا غير الّذى كانوا يعملون حينما كذّبوا الرّسول الكريم وجحدوا آيات الله تعالى . ومن البيّن أنّ الكافرين فى تمنّيهم يتحوّلون من المستحيل إلى المستحيل ولم يبق لهم سوى أن يُنْسَوْا فى النّار كما كانوا يَنْسَون يوم القيامة . إنّ الكافرين لم يجدوا الشّفعاء ، ولم تتحقّق أمنيّتهم بالعودة إلى الحياة الدّنيا ، وبذلك هم خسروا أنفسهم حقًّا لأنّهم أوردوها النّار وبئس الورد المورود ، ولأنّ الّذين كانوا يزعمون أنّهم شركاء لله تعالى فى العبادة ويفترون على الله تعالى الكذب بشأنهم ، قد ضلّوا عنهم وغابوا ، اختفوا منهم وخذلوهم . إنّ الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة قد نصّت على خسران العابدين وفِرار المعبودين : ﴿ قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

وبعد حديث الآية الكريمة عن بعض مظاهر الغيب فى القرآن الكريم ، والمعروف أنّ الإنباء بالغيب من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، يتمّ التّحوّل إلى الحديث فى مظهرٍ من أكبر مظاهر الخلق ، ألا وهو خلق الله تعالى ملكوت السّماوات والأرض. إنّ خالق هذا الكون العظيم والّذى بيده ملكوت كلّ شيءٍ ينبغى أن يكون له وحده دون سواه الأمر والحكم . وحول هذه المعانى تحدّثت .

الآيـــة رقـــم (٥٤)

قال تعالى : ﴿ إنّ ربّكم الله الّذى خلق السّماوات والأرضَ فى ستّة أيّامٍ ثمّ استوى على العَرْش يُغْشِى اللّيلَ النّهارَ يطلبه حثيثًا والشّمسَ والقَمَرَ والنّجومَ مسخّراتٍ بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله ربّ العالمين ﴾ .

ممّا يلفت النّظر مجيء لفظ الرّبّ فى بداية الآية الكريمة : ﴿ إنّ ربّكم الله ﴾ وفى نهايتها : ﴿ تبارك الله ربّ العالمين ﴾ والمعروف أنّ لفظ الرّبّ لإفادته معنى التّربية للعباد بالنّعم والتّنشئة بالآلاء يستعمل فى مواقف الخصوص وفى إشاعة جوّ البشر والسّرور ، الودّ والحبور ، وفى التّنبيه إلى وجوب قيام العباد بالشّكر لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة . وحينما يجمع هذا القول : ﴿ إنّ ربّكم الله الّذى خلق السّماواتِ والأرض فى ستّة أيّامٍ ثمّ استوى على العرش ﴾ بين لفظ الرّبّ الّذى يرتبط به توحيد الرّبوبيّة فالله تعالى هو وحده مربّى عباده بنعمه وآلائه ، وبين لفظ الله ، عظيم أسماء الله تعالى الحسنى ، الّذى يرتبط به توحيد الألوهيّة ، فالله تعالى هو المستحقّ وحده للعبادة من كلّ النّاس ، حينما يجمع هذا القول بين لفظ ﴿ ربّ ﴾ وبين لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ نكون أمام خصوص تربيةٍ ووجوب الشّكر لله تعالى عليها من ناحية ، وأمام عمومٍ ووجوب إفراد الله تعالى بالألوهة أي بالعبادة ، من ناحيةٍ أخرى ، فلا معبود بحقٍّ لكلّ النّاس سوى الله تعالى ربّ العالمين . وإذا كنّا فهمنا من القول : ﴿ إنّ ربّكم ﴾ أنّ خلق الله تعالى السّماوات والأرض من أجل هذا الإنسان الّذى يربّيه ربّه على عينه فإنّا نفهم من لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ الّذى يفيد العموم تهيئة جنس الإنسان لتلقّى النّبأ الجلل بأنّ الله تعالى هو وحده دون سواه الّذى خلق السّماوات والأرض . وهي بنصّ القرآن واعتراف الإنسان أكبر من خلق النّاس .

وكي يلقّن ربّ العزّة الإنسان العجول درسًا فى التّأنّى والتّروّى يكون النّصّ على أنّ عمليّة خلق السّماوات والأرض قد تمّت فى ستّة أيّام ، الله تعالى وحده لا شريك له يعلم حقيقة طولها ، فلم يكن ثمّة شمسٌ آنذاك مثلاً . وإنّه بالجمع بين عددٍ من آي الذّكر الحكيم ومنها الآيات ٩ ـــ ١٢ من سورة فصّلت والآيات ٢٧ ـ ٣٣ من سورة النّازعات فهم العلماء أنّ خلق الأرض دون دحوٍ تمّ فى يومين اثنين ، ثمّ كان خلق السّماوات فى يومين اثنين ، ثمّ تمّ دحو الأرض وتهيئتها للإنسان فى يومين اثنين تمام الأيّام السّتّة . والله أعلم .

وقد اقترن بعمليّة الخلق عمليّة الأمر والتّدبير الّتى عبّر عنها بالقول : ﴿ ثمّ استوى على العرش ﴾ والعرش فى اللّغة السّرير . والمعنى هنا أنّ ربّ العزّة استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته عزّ وجلّ من غير تكييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ولا تعطيل . ومن مظاهر أمره جلّ وعلا وتدبيره ، قدرته عزّ وجلّ وتقديره ، أن جعل اللّيل يُغْشِى النّهار ويغطّيه بظلمته . وفى المقابل جعل الله تعالى النّهار بنوره يغطّى اللّيل بظلامه . فإذا غطّى اللّيل النّهار طال اللّيل على حساب النّهار فى الشّتاء بخاصّة. وإذا غطّى النّهار الليل طال النّهار على حساب اللّيل فى الصّيف بخاصّة . وفى ذكر اللّيل قبل النّهار فى القول : ﴿ يغشى اللّيل النّهار يطلبه حثيثاً ﴾ تنبيهٌ إلى أنّ اللّيل أو الظّلام هو الأصل وأنّ النّهار أو النّور طارئ . وكما يطلب اللّيل النّهار حثيثاً وسريعاً[1] يطلب النّهار اللّيل حثيثًا وسريعًا ، وتنبيهٌ إلى مثل قوله تعالى فى سورة يس[2] : ﴿ وآيةٌ لهم اللّيل نسلخ منه النّهار فإذا هم مظلمون . والشّمس تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعُرْجون القديم . لا الشّمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا اللّيل سابق النّهار . وكلٌّ فى فلكٍ يسبحون ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٤٦ وتفسير ابن كثير ٠ / ٢٢٠ ونظم الدّرر ٧ / ٤١٦ .

(٢) الآيات ٣٧ ـ ٤٠ .

وتأكيدًا لمعنى الأمر والتّدبير ، القدرة والتّقدير يجيء القول : ﴿ والشّمسَ والقمرَ والنّجومَ مسخّراتٍ بأمره ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى خلق السّماوات والأرض خلق الشّمس السّراج الوهّاج ، والقمر الكوكب المنير المستمدّ نوره من ضوء الشّمس ، والنّجوم المتوهّجة المولّدة بذاتها للطّاقة والّتى لا يعلم حقيقة عددها إلاّ الله تعالى . إنّ كلّ هذه النّجوم والكواكب معلّقةٌ فى الفضاء بيد القدرة الإلهيّة . وقد عبّر العلم الحديث بلفظ الجاذبيّة تنبيهًا على تلك القدرة العجيبة ، فلا اضطراب ولا اصطدام . بل كلٌّ فى فلك يسبحون وفى خطّ مقدّرٍ واضح المعالم يسيرون . وإلى غايةٍ واحدةٍ ومصيرٍ محتومٍ يصيرون .

إنّ كلّ هذه المعانى تنطق بلسان الحال وتهتف بما جاء فى الآية الكريم بعد ذلك بلسان المقال : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ إنّ الّذى يخلق ويقدّر هو الّذى يحكم ويأمر. إنّ المشركين كانوا يعترفون بتوحيد الرّبوبيّة : ﴿ ألا له الخلق ﴾ فحينما يُسألون عن الخالق الرّازق المحيى المميت البارئ المصوّر يقولون : إنّه الله تعالى وحده لاشريك له . فإذا طُلِب منهم تحقيق الشّقّ الآخر من القول : ﴿ ألا له الخلق والأمر﴾ فعليهم أن يفردوا الله تعالى بالعبادة وأن يحكموا بما أنزل الله تعالى على حبيبه المصطفى ﷺ كان موقفهم هو الّذى يعنيه قوله تعالى(١) : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى ﴾ وقوله تعالى(٢) : ﴿ ألم تر إلى الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنْزِلَ إليك وما أُنْزِل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت وقد أُمِروا أن يكفروا به ويريد الشّيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيدًا . وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرّسول رأيت المنافقين يَصُدّون عنك صدودًا ﴾ .

وكما جمعت بداية الآية الكريمة بين الاسمين ﴿ الرّب ﴾ ﴿ الله ﴾ من أسماء الله تعالى الحُسْنى وذلك فى القول : ﴿ إنّ ربّكم الله ﴾ جمعت النّهاية أو التّذييل :

---

(١) سورة الزّمر ٣ . (٢) سورة النّساء ٦٠ و٦١ .

﴿ تبارك الله ربّ العالمين ﴾ ومعنى تبارك ببساطة : تعاظم(١) ولهذه الجملة علاقة وثيقةٌ بالبركة بمعنى ثبوت الخير وزيادة النّعم ونماء الآلاء(٢) أمّا لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ ففيه التّنبيه إلى مبدع هذا الكون العظيم ومدبّره ، وأمّا لفظ : ﴿ الرّبّ ﴾ ففيه التّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بالنّعم ورعايته جلّ وعلا مصالحهم ، والأخذ بأيديهم إلى الصّراط المستقيم وجنّات النّعيم . وإذا كان فى أوّل الآية الكريمة قد جاء القول : ﴿ إنّ ربّكم ﴾ فإنّ فى آخر الآية الكريمة يجيء القول : ﴿ ربّ العالمين ﴾ إنّ ربّ العالمين يربّى كلّ خلقه بنعمه وآلائه وليس الإنس وحدهم ، وليس الجنّ وحدهم ولكنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق المدبّر كلّ عالَمٍ سواه جلّ وعلا . إنّ على العباد أن يفردوا بالعبادة الله تعالى الواحد الأحد الرّحمن الرّحيم ربّ العالمين . إنّه جلّ وعلا له وحده دون سواه الخلق والأمر . ولمّا كانت الآية الكريمة قد جاء فيها النّصّ على أنّ لله تعالى الخلق والأمر ، وكانت الآية الكريمة ذاتها قد تحدّثت فى الخلق فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث فى الأمر فإلى .

الآيـــة رقـم (٥٥)

قال تعالى : ﴿ اُدْعوا ربّكم تضرُّعًا وخُفْيَة . إنّه لا يحبّ المعتدين ﴾ .

عرفنا أنّ المشركين كانوا يعترفون بتوحيد الرّبوبيّة بمعنى أنّهم يعترفون بما تضمّنته الآية الكريمة السّابقة بشأن عمليّة الخلق . فالله سبحانه وتعالى فى اعتقادهم خالق السّماوات والأرض واللّيل والنّهار والشّمس والقمر والنّجوم والكون كلّه ، ولكنّ الأمر مختلفٌ بشأن توحيد الألوهيّة ، وكأنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تُعْنى بهذا

---

(١) الجلالين .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : ﴿ برك ﴾ ٤٤ ونظم الدّرر ٤١٨/٧ .

الجانب ، فهي من ناحيةٍ تأمر بدعاء الله تعالى وحده لا شريك له ، والمعروف أنّ الدّعاء مخّ العبادة ، وهي من ناحيةٍ أخرى ترشد إلى الكيفيّة المُثْلَى فى الدّعاء . وهذه الكيفيّة المُثْلَى تشمل الباطن والأعماق كما تشمل الوسيلة أعنى الصّوت أو النّداء . إنّ الدّعاء من ناحية الباطن يجب أن يكون صادقًا عميقاً ، وصاحبه ضارعًا لله تعالى متذلّلاً مستكينا . وإنّه من ناحية الوسيلة يجب أن يكون خُفْيةً وسرًّا . إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم السّرّ وأخفى ولا يخفى عليه جلّ وعلا من نبع دعاؤه من أعماقه بحرارةٍ وصدق ومن كان دعاؤه غير ذلك . ونستذكر بهذه المناسبة هذه الآية الكريمة عن زكريّا عليه السّلام . قال تعالى[1] : ﴿ إذ نادى ربّه نداءً خفيّا ﴾ إنّ الدّعاء من ناحية الحرارة والصّدق بمنزلة النّداء ، وإنّه من حيث النّطق والصّوت كان خفيًّا وسرًّا وخُفْية .

وتأكيدًا لمعنى السّرّ فى الدّعاء والخفاء يجىء التّذييل : ﴿ إنّه لا يحبّ المعتدين ﴾ ومع أنّ هذا التّذييل ينهى عن كلّ اعتداء ، بما فى ذلك صرف الدّعاء إلى غير الله تعالى ، فإنّه ينهى كذلك عن الاعتداء فى الدّعاء ذاته وذلك فى ضوء الحديث الّذى جاء فى الصّحيحين عن أبى موسى الأشعريّ قال : رفع النّاس أصواتهم بالدّعاء فقال رسول الله ﷺ : أيّها النّاس إرْبَعوا[2] على أنفسكم فإنّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبا . إنّ الّذى تدعون سميعٌ قريب[3] .

وإذا كانت الآية الكريمة تشمل سلامة المعتقد فإنّ الآية الكريمة التّالية تشمل وراء ذلك سلامة العمل وتومئ إلى الجزاء فإلى .

---

(١) سورة مريم ٣ .
(٢) إرْبَعُوا على أنفسكم : توقّفوا وكفّوا .
(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢١ .

الآيـــة رقـــم (٥٦)

قال تعالى : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا . إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ .

تنهى الآية الكريمة النّاس عن الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها . ونحن حينما نتبيّن أنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام قد عمرا الأرض وأصلحاها بالإيمان ، وأنّ ربّ العزّة بعث رسله كلّ مرّة أفسد فيها النّاس فى الأرض بعد إصلاحها بالإيمان حتّى كان الإصلاح الأخير للأرض بإرسال خير الأنام برسالة الإسلام نستطيع أن نفهم أنّ النّهي عن الإفساد فى الأرض يعنى النّهي عن الشّرك والإشراك مع الله تعالى غيره فى المقام الأوّل . إنّ إرسال الرّسل وبعث المرسلين أهمّ مظاهر الإصلاح فى الأرض وإنّ الشّرك أهمّ مظاهر الإفساد فى الأرض . وإنّ صلاح النّاس دينيًّا معناه بإذن الله تعالى صلاحهم دنيويًّا والعكس صحيحٌ بطبيعة الحال . وبما أنّ ربّ العزّة قد أصلح الأرض من الوجهة الدّينيّة بإرسال خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ وبما أنّ النّاس فريقان من دين الإسلام مؤمنون وكافرون ، وبما أنّ الفساد نوعان دينيٌّ ودنيويّ فإنّ كلّ ذلك يعنى أنّ النّهي عن الفساد فى الأرض بعد إصلاحها يشمل فى حقّ المؤمنين الفساد الدّنيويّ فى المقام الأوّل فى حين يشمل فى حقّ الكافرين النّوعين معًا . إنّ على غير المسلمين أن يتحوّلوا مسلمين ، وبذلك يتمّ الإصلاح دينيًّا ، وإنّ على المسلمين جميعًا أن يصلحوا دنياهم بعد صلاح دينهم مستعينين بالله تعالى متوكّلين عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له . وإنّ الّذى نبّه على الاستعانة بالله تعالى وحثّ على التّوكّل عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له هذا القول بعد ذلك : ﴿ وادعوه خوفًا وطمعاً ﴾ وهكذا يكون دعاء الله تعالى هو الّذى يبدأ به العباد وإليه ينتهون . وإنّ القول : ﴿ خوفًا ﴾ يعنى التّرهيب . وإنّ

القول : ﴿ وطمعاً ﴾ يعنى التّرغيب . وإنّ ثمرة خوف الله تعالى والطمع فى عفوه وعونه خشية الله تعالى لأنّ الخوف من الله تعالى يطرد الغفلة وأمن مكر الله تعالى ولأنّ الطّمع فى فضل الله تعالى ورحمته يطرد اليأس من رَوْح الله تعالى ورحمته . وهكذا يكون المؤمن جامعًا بين الخوف من عذاب الله تعالى وغضبه وخِذْلانه ، وبين الطمع فى فضل الله تعالى وعونه ورضوانه . إنّ الخوف يسدّده الاطمئنان إلى عدل الذّات العليّة ، وإنّ الطّمع يؤيّده الاطمئنان إلى فضل الذّات العليّة . وهكذا يتقلّب المؤمن فى نعيمي فضل الذّات العليّة وعدلها .

وإنّ الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة الّتى يجىء فيها التّنويه بمرتبة الإحسان وذلك فى القول : ﴿ إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ كأنّها تقول إنّ ثمرة الخوف من عذاب الله تعالى والطّمع فى عفوه ومغفرته الارتقاء إلى درجة الإحسان بالمعنى الّذى بيّنه الحديث النّبويّ الشّريف الّذى عرّف الإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك(١) وإذا كان الإحسان ثمرة الخوف والطّمع فإنّ رحمة الله تعالى الواسعة ثمرة الارتقاء إلى مرتبة الإحسان .

ويلفت النّظر فى الجزئيّة الكريمة القول : ﴿ قريب ﴾ وليس القول : قريبة ، رغم أنّ الرّحمة مؤنّثة . وقد ذهب بعضهم إلى أنّ الرّحمة ضمّنت معنى الثّواب ، وذهب بعضهم إلى أنّ الرّحمة مضافةٌ إلى الله فلهذا قال : ﴿ قريب من المحسنين ﴾(٢) والمعنى أنّنا بصدد رحمة ، وكون هذه الرّحمة من الله تعالى . إنّ الله سبحانه وتعالى قريبٌ من عباده ، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد . وإنّ رحمة الله تعالى قريبةٌ هي الأخرى من المحسنين لأنّها من الله تعالى القريب الّذى يجيب دعوة الدّاعى إذا دعاه . وإنّ فى النّصّ على قرب الله تعالى تأكيدًا لقرب الرّحمة ، وكأنّ أصل الكلام : إنّ رحمة الله تعالى القريب من المحسنين قريبةٌ منهم . وكأنّ هذه الزّيادات قد أغنى عنها مجىء قريب فى صيغة المذكّر فى القول : ﴿ إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾

---

(١) صحيح البخاريّ ١/٢٠ .

(٢) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٢ .

وكأنّ لفظ قريب قد لبّى نداء النّفس لاستقبال القول : « قريبة » فى صيغة المؤنّث. وبذلك نالت الرّحمة حظّها . وحينما جاء ﴿ قريب ﴾ فى صيغة المذكّر تبيّن أنّه فى الحقيقة راعى لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ وكأنّ لفظ قريب توزّع بين معنى الرّحمة وبين لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ إنّ الرّحمة كان من حظّها القرب لفظاً ومعنًى ، وإنّ لفظ الجلالة كان من حظّه القرب معنًى ولفظًا . ومن البيّن أنّ المعنى هو الأهم لأنّ قرب الرّحمة مِنْ قُرْب الله تعالى من المحسنين .

ولمّا كان لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ يفيد العموم فكأنّنا بصدد حثّ لجميع النّاس على أن يرتقوا إلى مرتبة الإحسان بالمعنى الّذى تبيّنّا ، مرورًا بمرتبتي الإسلام والإيمان بين يديها .

ومن مظاهر رحمة الله تعالى القريب من المحسنين رحمة الغيث أو المطر ، وإلى هذا المظهر من الرّحمة أشارت .

الآيــة رقــم (٥٧)

قال تعالى : ﴿ وهو الّذى يرسل الرّياح بُشْرًا بين يدي رحمته حتّى إذا أقلّت سحابًا ثقالاً سقناه لبلدٍ ميّتٍ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلّ الثّمرات . كذلك نخرج الموتى لعلّكم تذكّرون ﴾ .

تستعمل الآية الكريمة لفظة ﴿ رحمة ﴾ دليلاً على المطر تنبيهًا على حاجة العباد الملحّة لهذا النّوع من الرّحمة خاصّةً مع ذكر البلد الميّت بسبب الجفاف وقلّة الماء . وإنّ نزول هذا النّوع من الرّحمة فى هيئة المطر يلبّى طمع العباد حينما يدعون الله تعالى على نحو ما أشارت الآية الكريمة السّابقة : ﴿ وادعوه خوفًا وطمعًا . إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ وإنّ القول : ﴿ وادعوه خوفًا وطمعاً ﴾ يذكّرنا بما جاء فى سورة الرّعد عن البرق الّذى يرتبط به الخوف من المطر فى حالة عدم الاستعداد لاستقباله والطّمع فى حالة الحاجة الملحّة له على غرار حاجة الأرض الميتة وأصحابها

له. قال تعالى[١]: ﴿ هو الّذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السّحاب الثّقال﴾.

إنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده الّذى لا شريك له وهو وحده دون سواه الّذى يرسل الرّياح بين يدي رحمته جلّ وعلا وقبل نزول المطر دليلاً عليه . ويلاحظ مجيء جملة : ﴿ يرسل ﴾ فى صيغة الزّمن المضارع الّذى يدلّ على التّجدّد والاستمرار . كما يلاحظ مجيء لفظة : ﴿ الرّياح﴾ فى صيغة الجمع ، لأنّ المطر ، وهو من مظاهر رحمة الله تعالى ، وليد مجموعةٍ من الرّياح. والمعروف أنّ لفظة ﴿ رياح ﴾ فى صيغة الجمع تجىء مع الرّحمة بعكس لفظة : ﴿ ريح ﴾ فى صيغة المفرد الّتى تجىء مع العذاب إلاّ إذا كانت الرّحمة تحتاج الرّيح الواحدة وهنا توجد القرينة الصّارفة للرّيح عن العذاب إلى الرّحمة وذلك كلفظة طيّبة فى هذه الآية الكريمة من سورة يونس[٢] قال تعالى : ﴿ هو الّذى يسيّركم فى البرّ والبحر حتّى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريحٍ طيّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كلّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أحيط بهم دَعَوُا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين ﴾.

والمعروف أنّ الرّياح برسلها الله تعالى مبشّراتٍ بين يدي رحمته جلّ وعلا فى هيئة المطر . وبذلك يكون بُشْرًا جمع بشير كما يُجْمع النّذير نذر[٣] والمعروف أنّ عاصم بن أبى النّجود الكوفيّ كان يقرؤه : بشراً على اختلافٍ عنه فيه ، فروى ذلك بعضهم عنه بشرًا بالباء وضمّها وسكون الشّين ، وبعضهم بالباء وضمّها وضمّ الشّين[٤] .

وهذه الرّياح المبشّرات بين يدي رحمته جلّ وعلا يرسلها الله تعالى فتلقح السّحاب فيمتلئ ماءً . جاء فى سورة الحِجْر[٥] قوله تعالى : ﴿ وأرسلنا الرّياح

---

(١) سورة الرّعد ١٢ .
(٢) الآية ٢٢ .
(٣) انظر تفسير الطّبريّ ١٤٨/٨ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٤٨/٨ .
(٥) الآية ٢٢ .

لواقح فأنزلنا من السّماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ . وبذلك تقوم الرّياح بدوري التّبشير والتّلقيح بإرادة الله تعالى .

حتّى إذا أقلّت الرّياح سحابًا ثقالاً بالماء وحملته[1] ساقه الله تعالى لبلدٍ ميّت لا ينبت فأنزل الله تعالى بذلك البلد الميّت الماء فأخرج به من كلّ الثّمرات . وإنّ في ذكر الثّمرات وهي منتهى ما يستفاد من النّبتة ذكرًا ضمنيًّا لكلّ المراحل الّتي تمرّ بها الزّراعة أو الشّجرة منذ خلق الله تعالى الحبّة والنّواة . ولا يكاد العجب ينتهي من إخراج ربّ العزّة كلّ الثّمرات من الزّروع الّتي تُسْقى بماءٍ واحد . وقد جاء التّنبيه إلى هذه العجيبة في قوله عزّ من قائل في سورة الرّعد[2] : ﴿ وفي الأرض قِطَعٌ متجاوراتٌ وجنّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بماءٍ واحدٍ ونفضّل بعضها على بعضٍ في الأُكُل . إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾ وكذلك لا يكاد العجب ينتهي حينما يدرك المرء أنّ السّحاب الثّقال يحمل من كمّيّات الماء الهائلة الحجم الثّقيلة الوزن ما لا يحيط به إلاّ الله تعالى منشئ السّحاب ومسخّره لكلّ ذلك وهو الّذي لا يستطيع بإرادة الله تعالى أن يحمل في أثنائه أو أن يحتضن في أحشائه أصغر حصاة !

وكما يخرج الله تعالى بإرادته النّبات الحيّ من الأرض الميتة يخرج الله تعالى يوم القيامة بإرادته الخلائق من الأرض أيضًا وقد قال تعالى[3] : ﴿ يوم تبدّل الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسّماوات . وبرزوا لله الواحد القهّار ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى الّذي أوجد من العدم الخلائق ابتداءً قادرٌ على خلقهم عودة ، وقد قال تعالى[4] : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السّماء كطيّ السّجلّ للكتب كما بدأنا أوّل خَلْقٍ نعيده . وَعْدًا علينا إنّا كنّا فاعلين ﴾ جاء في الحديث الّذي رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ النّاس إذا

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨/١٤٩

(٢) الآية ٤ .

(٣) سورة إبراهيم ٤٨ .

(٤) سورة الأنبياء ١٠٤ .

ماتوا فى النّفخة الأولى أمطر عليهم من ماءٍ تحت العرش يدعى ماء الحيوان أربعين سنة(١) فينبتون كما ينبت الزّرع من الماء . حتّى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الرّوح ثمّ يلقى عليهم نومةً فينامون فى قبورهم . فإذا نفخ فى الصّور الثّانية عاشوا وهم يجدون طعم النّوم فى رءوسهم وأعينهم كما يجد النّائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ؟ فناداهم المنادى : ﴿ هذا ما وعد الرّحمن وصدَق المرسلون ﴾(٢) .

إنّ المطلوب من النّاس أن يتذكّروا ويتّعظوا من آي الذّكر الحكيم وأن يعملوا فى دار العمل ولا جزاء لدار الجزاء ولا عمل ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون . إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم ﴾(٣) .

وإذا كان كلّ الثّمرات وكلّ النّباتات تُسْقى بماءٍ واحد هو الماء العذب الفرات الّذى مصدره السّماء أساسًا فإنّ بعض القطع المتجاورات من الأرض يختلف أحيانًا بعضها عن بعضٍ فى الخصوبة وتقبّل الماء وبالتّالى إخراج الثّمرات . وحول هذه المعانى تحدّثت الآية الكريمة الأخيرة فى القسم فإلى .

الآيــة رقــم (٥٨)

قال تعالى : ﴿ والبلد الطّيّب يخرج نباته بإذن ربّه والّذى خَبُثَ لا يخرج إلاّ نَكِدًا. كذلك نصرّف الآيات لقومٍ يشكرون ﴾ .

تبيّن الآية الكريمة أنّ الأرض الخصبة والبلد الطّيّب والتّربة الجيّدة يخرج نباتها بإذن

---

(١) جاء فى تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٢ أربعين يومًا .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٤٩/٨ وانظر هنا تأمّلات فى سورة النّازعات ص ٢٨ بشأن الحديث .

(٣) سورة الشّعراء ٨٨ و٨٩ .

ربّها جلّ وعلا طيّبًا مباركًا شهيًّا . أمّا ما خبُث من ذلك كلّه وساء وفسد فإنّ النّبات لا يخرج إلاّ نكدًا عسرًا فى شدّة(١) وبمشقّةٍ(٢) وقد لا يخرج نباتٌ أساسًا . ويلاحظ بشأن الآية الكريمة السّابقة أنّها تنصّ على الثّمرات : ﴿ فأخرجنا به من كلّ الثّمرات ﴾ وفى ذكر الثّمرات ذكرٌ ضمنيّ للزّرع والشّجر والنّبات عمومًا ، فى حين تقف الآية الكريمة الّتى نحن بصددها عند النّبات ، المذكور بصريح اللّفظ فى حقّ البلد الطّيّب : ﴿ والبلد الطّيّب يخرج نباته بإذن ربّه ﴾ المضمر فى حقّ البلد الّذى خبث : ﴿ والّذى خبث لا يخرج إلاّ نكدا ﴾ وفى ذكر النّبات بشأن البلد الطّيّب تنبيهٌ إلى ما يترتّب على النّبات الطّيّب من ثمرةٍ طيّبة ، وفى إضمار النّبات بشأن البلد الّذى خبث تنبيهٌ إلى ما قد يترتّب على النّبات الّذى يخرج نكدًا من ثمرةٍ نكدة . هذا فى حال خروج النّبتة وقد علمنا أنّ النّبتة قد لا تخرج أساسًا فى البلد الّذى خبث .

وكما نبّه التّذييل فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ كذلك نخرج من الموتى لعلّكم تذكّرون ﴾ إلى إخراج الله تعالى يوم القيامة الموتى من قبورهم للبعث فالحساب فالجزاء ، نبّه التّذييل هنا : ﴿ كذلك نصرّف الآيات لقومٍ يشكرون ﴾ إلى تصريف الله سبحانه وتعالى الآيات وضرب الأمثال كي يتذكّر النّاس ويتّعظوا ، وكي يشكر المؤمنون لله تعالى الّذى هداهم الصّراط المستقيم فوجدوا شبهًا لهم فى النّبتة الطّيبة الّتى تخرج بإذن ربّها شجرةً طيّبةً أصلها ثابتٌ وفرعها وأعلاها فى السّماء ، وذلك فى مقابل وجود المشركين شَبَهًا فى النّبتة غير الطّيّبة الّتى خرجت شجرةً نكدةً خبيثةً اجتثّت من فوق الأرض مالها من قرارٍ ولا مستقرٍّ ولا ثبات .

إنّ البلد الطّيّب بمثابة الإيمان ، وإنّ النّبات الطّيّب بمثابة المؤمن . وإنّ البلد الّذى خبث بمثابة الكفر ، وإنّ النّبات الّذى خرج نكدًا هو الكافر . جاء فى هذا المعنى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٤٩ . (٢) الجلالين .

قوله عزّ من قائل فى سورة إبراهيم(١) : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيّبةً كشجرةٍ طيّبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها فى السّماء . تؤتى أكلها كلّ حينٍ بإذن ربّها . ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون . ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثّت من فوق الأرض مالها من قرار ﴾ وهذا المعنى نجده كذلك فى الحديث النّبويّ الشّريف الّذى رواه البخاريّ ومسلم والنّسائيّ عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ ما بعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكانت منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الّذى أرسلت به »(٢) .

---

(١) الآيات ٢٤ ـ ٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٢ .

[٧]

« نـــوحُ عليـه السّـلام وقومـــه »

الآيــات (٥٩ ـ ٦٤)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

نصّت الآية الكريمة الأخيرة فى القسم السّابق على البلد الطّيّب الّذى يخرج نباته بإذن ربّه جلّ وعلا ، وهكذا يستفيد المؤمن من الوحي السّماويّ للمرسلين والنّبيّين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين . كما نصّت الآية الكريمة على البلد الّذى خبث والّذى يخرج نباته نكدا ، وهكذا لا يستفيد الكافر من الوحي السّماويّ . وتدور آيات القسم التّالى حول قوم نوحٍ عليه السّلام الّذين أصرّوا على كفرهم فأغرقهم الله تعالى فى الحياة الأولى بالماء وسيحرقهم فى الآخرة بالنّار وبئس القرار .

إنّ السّياق يقرّر أنّ ربّ العزّة قد أرسل نوحًا عليه السّلام الأب الثاني للبشر وأوّل رسول ، وبعثه إلى قومه فدعاهم إلى توحيد الله تعالى وإلى العمل فى دار العمل لنيل الثّواب فى دار الجزاء فاتّهموه عليه الصّلاة والسّلام بالضّلال ، فأكّد لهم أنّه رسول ربّ العالمين ، وبيّن عليه السلام بعض مهمّات الرّسول وكفاءاته وهي البلاغ . والنّصح . والعلم اللّدنّيّ فى المقام الأوّل . كما بيّن عليه السّلام المطلوب من الّذين يدعوهم إلى الله تعالى . أن يتّعظوا ، ويتّقوا الله تعالى ، ويسألوه جلّ وعلا أن يرحمهم . وتجاه إصرار الكافرين على كفرهم وتكذيبهم أنجى الله تعالى نوحاً عليه السّلام ومن معه من المؤمنين فى السّفينة وأغرق الكافرين المكذّبين عمي البصائر والقلوب . إنّ على كفّار مكّة أن يعتبروا بما حلّ بالكافرين السّابقين .

الآيـــة رقم (٥٩)

قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يـا قـوم اعبـدوا الله مـا لكـم مـن إلـهٍ غيره إنّى أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم ﴾ .

بهذهالآية الكريمة يبدأ الحديث عن نـوحٍ عليـه السّـلام الأب الثّـانى للبشـر وأوّل رسل الله بعد حديث السّورة الكريمة فى صدرها عن آدم عليـه السّـلام الأب الأوّل للبشر وعن زوجه حوّاء عليها السّلام . ونستطيع أن نفهم أنّ ذرّيّة آدم عليه السّـلام ظلّوا مستمسكين بدين الإسلام لله ربّ العالمين ، والمعروف أنّ الدّين عند الله تعالى هو دين الإسلام ، بمعناه العامّ منذ أن هبط آدم وحوّاء عليهمـا السّـلام إلى الأرض ، وبمعناه الخاصّ منذ أن بعث الله تعالى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّـد بـن عبـد الله ﷺ . وظلّت ذرّيّة آدم عليه السّلام أمّةً واحـدةً مستمسـكةً بديـن الإسـلام ثـمّ اختلفت وتفرّقت بها السّبل عن سبيل الله تعـالى فظهـرت الحاجـة لإرسـال رسـولٍ يعيد الناس إلى الجادّة فكان نوحٌ عليه السّلام أوّل الرّسل . وكلّما انحرف النّاس عـن الجـادّة أرسـل الله تعـالى رسـولاً أو بعـث نبيًّـا لهدايـة الضّـالّين وإعـادتهم إلى سـواء السّبيل، إلى أن بعث الله تعالى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبـد الله ﷺ بالنّسخة الكاملة من الحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء .

والآية الكريمة تبيّن فى أسلوب القسم أنّ ربّ العزّة أرسل نوحاً عليـه السّـلام إلى قومه الّذين اشتدّ انحرافهم عن الصّراط المستقيم وتمكّنت منهم العلـل حتّـى إنّـه عليـه الصّلاة والسّلام ظلّ يدعو قومه ألف سنةٍ إلاّ خمسين عاماً وما آمـن معـه إلاّ قليـل . جاء فى هذا المعنى قوله تعالى[1] : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبـث فيهـم ألـف سنةٍ إلاّ خمسين عاماً فأخذهم الطّوفان وهم ظالمون ﴾ .

---

(١) سورة العنكبوت ١٤ .